السياسة الفلسطينية تجاه «المجموعة الاوروبية»

محمد خالد الأزهري

لا يصح التأصيل للمشروع الصهيوني وتجربته في المنطقة العربية دون العودة الى الدور الاوروبي. ففي أوروبا كانت البداية من حيث الفكر أو الحركة. ويبدو أن التوافق العام على هذا المبدأ هو الذي قاد الى افتتاح معظم المؤلفات التي أرّخت لهذا المشروع ـ ومن ثم للقضية الفلسطينية ـ بالتعرض الى السياسة الاوروبية ازاء فلسطين والمنطقة العربية من حولها. يعنّ لبعض هذه المؤلفات أن تستهل حديثها بمراجعة هذه السياسة منذ الحروب الصليبية؛ بينما يكتفي البعض الآخر بالبدء بحملة نابليون على فلسطين (١٧٩٩) ودعوته الى يهود فرنسا بالعودة الى «أرض ـ اسرائيل»، أو بالمؤتمر الصهيوني الاول في بازل (١٨٩٧)، مروراً بوعد بلفور (١٩١٧) وما تبعه من أحداث. وفي السياق عينه، يتمّ الربط بين تجربة المشروع الصهيوني من حيث الاهداف والممارسات في المنطقة العربية، وبين الاهداف والممارسات التي طرحتها تجربة الاستعمار الغربي في المنطقة، بما في ذلك نهجا العنف والعنصرية. وحيثما كانت البداية، فاننا نعثر على أكثر من نقطة تقاطع تربط السلوك الاوروبي بالمشروع الصهيوني. غير ان متغيرات كثيرة طرحت ذاتها عبر سنوات الصراع وأثرت في الخبرة التي تراكمت، وبالتالي في التوجه الفلسطيني نحو الغرب بعامة، والشطر الغربي من أوروبا بصفة خاصة.

يمكن على سبيل المثال لا الحصر ملاحظة ما يلي:

○ التواكب بين افتتاح المشروع الصهيوني وانفراط عقد المجتمع الفلسطيني، وتراجع القوى الاوروبية التقليدية الى الصف الثاني، أو الثالث، على سلّم قوى النظام الدولي، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

○ انه عندما بدأت أوروبا الغربية، التي ضمّت القوى الاكثر تأثيراً في مسار القضية الفلسطينية، في اعادة تكوين الذات على أسس وحدوية، وبرزت «الجماعة الاوروبية»، كان الفلسطينيون، بدورهم، يسعون الى اعادة توضيح أنفسهم، حيث ظهرت منظمة التحرير الفلسطينية الى حيّز الوجود.

○ انه عند بداية «التعاون السياسي الاوروبي» في منتصف السبعينات، عملت أوروبا الغربية على اقرار مبدأ الحوار العربي ـ الاوروبي بديلاً للحالة التي كان طابعها العام «العداء» مع العرب.

○ وعندئذٍ اصطدم الاوروبيون بالفلسطينيين داخل الحوار وخارجه، وبمنظمة التحرير بعد أن انجزت الكثير على الصعيد السياسي، محلياً واقليمياً ودولياً؛ ومرة أخرى وجد الاوروبيون أنفسهم تجاه الحقيقة الفلسطينية؛ كما وجد الفلسطينيون أنفسهم ازاء «غريم» كان عليهم أن يحددوا موقفاً تجاهه، بالعداء أو بالحوار واعادة تصحيح التصور المتبادل.